عصر الدولة العلوية

أ- التاريخ السياسي (ج2).

1- **السلطان ليزيد وأزمة العرش** (1204-1206هـ / 1790-1792م): كانت أمه أوربية، قليل الثقافة، مائلا للفنون العسكرية، ذو روح وطنية وكراهية للأجنبي اعتبرها البعض تعصبا. وكان قائدا للقوات البحرية والعسكرية، دفعه ذلك للخروج على أبيه (1189هـ)، ثم عفا عنه، وأرسله للحج مرتين، وصار في شبه منفى (تونس وطرابلس)، وعاد سنة 1203هـ. ولما توفي أبوه بايعه أهل جبالة ثم تطوان، وتتابعت البيعات له (1204هـ) وتسمى بمحمد المهدي، وكان من أوائل أوامره الأمر بنهب اليهود حيثما حلوا. على أنه نازعه الأمر أخوه هشاما، فصالحه.

كانت أول أعماله الخارجية محاولة الصلح مع المملكة الاسبانية؛ فعرض على ملكها كارلوس الرابع إرسال قنصلية، فتم إرسال اليهودي منويل سلمون، الذي قام عند نزوله طنجة بالغارة على سفينتين مغربيتين، مما أغضب السلطان واتجه إلى سبتة فحاصرها، فأعلن كارلوس الحرب عليه (1205هـ). وحاصر سبتة طويلا ثم أجلى عنها بسبب فتنة الحوز.

وكان الإسبان كثيري التدخل في فتن المغرب، وقد حنقوا علي اليزيد قتله وزير أبيه قادوس ذي الأصل الاسباني، الذي كان يحتفظ بأموال أبيه وأودعها لدى الإسبان الذين رفضوا تسليمها. وأعانوا كل من عامل آسفي عبد الرحمن الناصر والأمير هشام وثوار الحوز في القيام عليه. وهكذا تمت البيعة لهشام بمراكش (1206هـ) وتابعته آسفي وزمور والرحامنة والسوس. وتحرك السلطان وحاصر مراكش ثم اقتحمها وأعمل السيف في أهلها وأعيانها، وأمر بإخراج يهودها حفاة عراة. ثم التقى بخارجها مع غريمه هشام وجيش الحوز، ورغم قلة من معه استطاع هزيمتهم، لكنه أصابته رصاصة في خده، وتوفي بعد المعركة عند رجوعه إلى مراكش (1206هـ).

وقد اختلف مؤرخو المغرب في الحكم عليه، ففي حين رآه الضعيف والمشرفي كمناضل ومن المتمذهبين بمذاهب الفتوة والدين، رآه أكنسوس من العتاة الباطشين.

2- **دولة السلطان سليمان بن محمد (ضعف سلطة المخزن)** (1206-1238هـ/1792-1822م):

أ. وصف الأحوال: فتح موت اليزيد الباب على مصرعيه للمتنافسين على الملك وكانوا: هشاما بمراكش ونواحيها وآسفي وتيط؛ وأخوه مسلمة بالعرائش وطنجة وتطوان؛ وأخوه عبد الرحمن بدرعة وتافيلالت؛ وأخوه سليمان بفاس ومكناس والأطلس المتوسط الذي ساندته الأودايا وجيش البخاري بمكناس. وتنازع الأمراء النفوذ الاسباني للاعتراف الدولي بهم.

وكان السلطان سليمان ضليعا بالعلوم، معروفا بحسن سلوكه واستقامته، مائلا عن أهل التصوف إلى الوهابية، لكنه لم يكن من أهل الحرب. وواجه منافسيه، وكان أولهم مسلمة الذي انهزم ونفي إلى المشرق وتوفي بها.

وعانى عددا من الثورات الخطيرة أضعفت سلطان المخزن منها: ثورة الشاوية (1208-1214هـ)؛ وثورة حوز مراكش (1206-1211هـ)؛ وثورة بربر الأطلس الأوسط (آيت يدراسن، آيت وامالو...) المتكررة (1222،1216،1214، 1224-1234هـ) ذات الطابع العنصري (موقعة ظيان)؛ وثورة فاس (1235-1237هـ) المبايعة لإبراهيم بن اليزيد ثم السعيد بن اليزيد...

وبعد مؤتمري فينا (1815م) وإكس لاشابيل (1818م) الناصين على إلغاء القرصنة الدولية، قام السلطان بحل أسطوله الجهادي (1233هـ/1817م)، وتوزيع قطعه على طرابلس والجزائر، وتحويل بقيته إلى العمل المدني.

وكانت علاقته مع الجزائر العثمانية جيدة في عمومها بعد توثر، وأثناء الحركة الدرقاوية ساهم باستقبال اللاجئين، ورفض بيعة أهل تلمسان له بعد دخول الدرقاوية إليها (حوالي 1220هـ).

ب. سياساته الداخلية:

- **الجيش:** كان العنصر العربي والأودايا على وجه الخصوص أقوى مكون في الجيش المغربي (08 آلاف)، مع عنصر البخارى الذي ضعفت قوته (حوالي 17 ألف)، واتجه السلطان للاعتماد على فئة الفرسان أكثر لتوزع الثورات والاضطرابات. وارتكب السلطان خطأ في تعيين قواد إداريين مبغضين من القبائل وأحيانا الجيش، أو كانوا غير مؤهلين للقيادة ككتاب المخزن؛ فجر ذلك تململ القبائل والجيش فالهزائم.

ومن مظاهر الضعف في الميدان الأمني، انعدام وجود شبكة استخبارات تزود المخزن بأخبار الأوضاع العامة؛ زاده غياب مجلس تمثيلي يعرف العاهل بسير الأحوال في المناطق.

وكان توقيف حركة الجهاد البحري دافع إلى زيادة طمع الدول الأوربية في بلاد المغرب، وكان فك الأسطول ضربة كبيرة للقوة البحرية المغربية الرادعة.

- **الاقتصاد:** تميزت سياسته المالية في مجموعها بالتقشف في النفقات، وحصر الضرائب والدخل في الموارد الشرعية؛ فأسقطت المكوس، وتم اقتلاع عشبة التبغ من المزارع بعد تدخل الفقهاء. وضعفت قيمة الريال قياسا بقيمته ذهبا، فبعدما كان في زمن اسمعيل يساوي ثلاثة أرباع المثقال ذهبا، صار في بداية القرن 19م يعادل مثقالا. وأثرت المجاعات والأوبئة في الاقتصاد المغربي، خاصة وباء سنتي 1799 و1800م،حيث فقدت مراكش 50الفا من سكانها، وفاسا 65 ألفا...

ودفعت عمليات التهريب للسلع والمواد المغربية، التي شارك فيها الأوربيون، إلى منع تصدير عدة مواد للأوربيين، وخلق التنافس الانجليزي الفرنسي سياسة تحفظ من التجارة المفتوحة مع الأطراف الأوربية.

- **الديـــن:** اتسمت السياسة الدينية بالاعتدال في شتى المجالات، فتخلي عن الاتجاه الحديثي لمحمد الثالث بالعودة لتشجيع الفروع الفقهية المذهبية. وبرزت حركة تأثر بالمذهب الوهابي، بفضل اتصلات العلماء، ومراسلات سليمان وسعود وذهب، وفد إلى السعودية ناقش ملكها وثبت لديه أن الوهابية مذهب سني يوافق المالكية مع بعض التشدد. نتج عن هذا تأثر السلطان بالمذهب؛ فأبطل المواسم (الاحتفال السنوي بذكرى الأولياء)؛ وندد بعباد الأولياء؛ مما خلق جوا معارضا خاصة من الطريقة الدرقاوية وريثة الدلائية في الأطلس الأوسط التي حاولت الإطاحة به. وتميز عهده بنشاط كبير في بناء المساجد في مختلف أنحاء البلاد.

ج- علاقاته الخارجية:

كانت العلاقات مع الدول الإسلامية في عمومها علاقات جيدة، خاصة مع الخلافة العثمانية، والإيالة التونسية، ومع السعودية الناشئة. أما مع فرنسا، فقد نشطت حركة القرصنة الفرنسية بين 1791-1815م، وتعرض المغاربة لها في غير ما مرة، أدى إلى احتجاجات مغربية ومطالبة باحترام الاتفاقات الدولية من حكومة الثورة الفرنسية. ورحبت المغرب بوفد تنصيب نابليون إمبراطورا لفرنسا (1807م)، وقد نشطت التجارة بين البلدين بعد هذا الوفد.

وعرف هذا العهد تدخلا أوربيا في النزاعات المغربية الداخلية بتأجيجها ودعم أصحابها؛ وكان ممن شارك في هذا كجاسوس ومبعوث أوربي دومينكو باديا (Dominigo badia) كان جاسوسا لبلاده اسبانيا ثم لفرنسا، وانتحل صفة التاجر التركي الحلبي علي باي العباسي، واتصل بالسلطان الذي أعجب به، ثم صار يتصل بخصومه، ثم بتعليمات من دولته حاول تحريك بني يزناسن ضد السلطان؛ فاكتشف أمره لكنه استطاع الفرار، دام مقامه بالمغرب بين 1803 و 1805.

ودخلت المستعمرات الاسبانية في ملك بونابارت، فعرضت على المغرب التخلي عن مليلية والحسيمة وبليونش مقابل التنازل على أجزاء من الأراضي حول سبتة (1810م)، غير أن الثورة الاسبانية على الفرنسيين جعلت السلطان يؤجل ذلك الأمر. وكان المغرب رغم توتر علاقاته مع اسبانيا في عهد ليزيد، قد اتجه في عهد سليمان إلى عقد معاهدة تصالح لا تضر بالمصالح المغربية، فتم ذلك في سنة 1799م، تناولت العلاقات القنصلية وأمن الرعايا والمصالح التجارية.

أما العلاقات مع الأمريكيين فكانت في مجملها جيدة، فبعد الاعتراف المغربي بالاستقلال الأمريكي بمعاهدة 1786م، والتي أعاد التوقيع عليها السلطان سليمان، لكن حدثت بعض الاعتداءات على سفن بحرية متبادلة بسبب الأزمة الأمريكية الطرابلسية في سني 1802م، بسبب تموين المغرب لها.

د- وفـــاته ونقده: لما مرض السلطان سليمان أوصى بولاية العهد لابن أخيه عبد الرحمن بن هشام (1238هـ)، وحرر نص الولاية بعض نساء القصر وكتابه، وقرئ بفاس، وتوفي السلطان بعد تحريره بتسعة أيام، ويرى البعض أنه كان تنازلا عن الحكم أكثر منه ولاية للعهد. واجمع المؤرخين في التنويه على مثالية ونبل أخلاق الملك، قال عنه المشرفي:"لم يكن في ملوك عصره أعدل منه، وكان يلبس الصوف، وربما رئيت ثيابه مرقعة"، وقال الناصري:"وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته"، ومما وصف به هوفر قال:"كان من أحسن ملوك دولة الأشراف، وكانت على وجهه سمات الطيبوبة، ملازما لتعاليم الإسلام التي يتشبث بها".

3- المغرب وعصر الغزو الأوربي (1238-1290هـ/1822-1873م):

دخل المغرب في عهدي السلطانين عبد الرحمن ومحمد الرابع مرحلة من أخطر مراحل العصر الحديث؛ اقترنت بحركة الاستعمار الأوربي الموسع لبلاد المغرب الإسلامي.

أ- عصر السلطان عبد الرحمن بن هشام (1238-1276هـ/1822-1859م): كان خليفة عمه السلطان سليمان على فاس، وقد عهد له بالأمر من بعده؛ فاجتمعت عليه بيعات الجماعات. وواجه السلطان رفض قبائل الأطلس المتوسط البربرية وبعض القبائل العربية؛ وتدخلت الدرقاوية لإرجاع ابن غازي الزموري إلى البيعة فتم ذلك، ثم بايعت آيت يدراسن، فأمن المخزن الأطلس الأوسط.

1- الثورات والحركات:

ثارت قبيلة الأخماس (غمارة) بزعامة الفقيه محمد بن عبد السلام زيطان، زمن السلطان سليمان، ثم تجددت في زمن عبد الرحمن (1241-1825م)، وتولى عامل تطوان علاجها. وتحركت قبيلة الشرادة وهاجمت جيش السلطان وقادته في نواحي مراكش، فجهز لهم السلطان جيشه (1244-1828م) واقتحم زاوية الشرادي التي كانت تحميها المدافع. وعالج أيضا ثورة الأودايا (1830/1246هـ) وكان سببها أنهم طولبوا بما نهبوه من بلاد الجزائر فرفضوا وثاروا، وعالجهم السلطان بجيش البخاري من مكناس والقبائل، وكانوا قد جلبوا وبايعوا ابن عمه محمد بن الطيب، فحاصرهم بفاس وقصفهم ستة أشهر إلى أن استسلموا، وقام بعدها بتشريد الأودايا في البلاد وأسقطهم من الديوان إلى حين.

وعالج ثورات قبيلة زعير العربية في نواحي سلا والرباط (1849/1266م)، ونكب وجهائها (1845/1261م). ولم يكن الأطلس الأوسط بعيدا عن القلاقل ومنها حملة تأديبية ضد قبيلة زمور الذين حوصروا وشردوا في كل مكان (1843/1259)؛ ثم عاودوا الثورة سنة 1269 (1852م)، وتواصلت إلى وفاة السلطان، وقد عالجها ببعث ابنه محمد ثم بحربها بنفسه كل سنة إلى أن أذعنت القبيلة. وكان سبب هياج الأطلس الأوسط أن السلطان تخلى عن سياسة تعيين المسؤولين عن النواحي والقبائل من السكان المحليين، فاشتدت حركاتهم إلى وفاته.

2- **احتلال الجزائر ووضع المغرب**: بعد احتلال فرنسا للجزائر، حاول الداي حسين طلب عون السلطان المغربي. وقد أشيع في المغرب أن شيخ الطريقة التيجانية المغربي كان يهيأ ثمانين ألف رجل للزحف على الجزائر. ولما استقر الفرنسيون بعث أهل وهران وتلمسان وفدا عليه مصطفى بن اسمعيل المزاري وبنونة وعرضوا البيعة على السلطان المغربي، فقبلها بعد تردد وبعث ابنه علي مع خمسمائة جندي، وأخذوا بيعات قبائل الناحية إلى نواحي مليانة. وعندما اعتدى قادة المغاربة من قبائل الأودايا على أموال الكراغلة وقبائل الناحية أفسدوا العلاقة بين السلطان وتلك القبائل، التي ستتوجه بعد نحو الفرنسيين. واضطر المغاربة لسحب إدارتهم بالناحية سنة 1832م. وبقي المغرب يعين الجزائريين بما يستطيع وخاصة في دعم الأمير عبد القادر، وقيل أنه كان بجيشه ثلاثة آلاف مغربي فضلا عن المتطوعة.

وتتوتر العلاقة مع الفرنسيين إلى أن يقتحم الجنرال بيجو مدينة وجدة المغربية (1844م) ثم يرجع عنها إلى مغنية. وقامت البحرية الفرنسية بقصف طنجة بشدة وردت عليها المدفعية المغربية بقوة (06 أوت)، وقُصفت الصويرة. ثم كانت **موقعة إيسلي** (14 أوت 1844م) بين الجيش الفرنسي والقوى المغربية بقيادة الأمير محمد بن السلطان، والتي حسمتها بسرعة المدفعية الفرنسية (64 مدفعا، مقابل 11)، وخلفت ثمانمائة شهيد مغربي وحوالي ألفي جريح. وأفضى

الأمر إلى احتلال وجدة والصويرة، ثم على توقيع **معاهدة طنجة** 10 سبتمبر 1844، وكان من بنودها الثمانية: تعهد المغرب بمطاردة الأمير عبد القادر والقبض عليه.

كانت هذه المعاهدة مخزية بكل ما تحمله الكلمة من دلالة، ومهما حاول إبراهيم حركات تبريرها في شخص الأمير مقابل دولة فتبقى كذلك؛ لأنها كانت إعلانا بتخلي الملك المغربي عن دعم إخوانه الجزائريين، بل أن السلطان المغربي أصبح عدوا للأمير عبد القادر؛ وذكر مؤرخو المغرب أنه كان بسبب دعوة الأمير لنفسه في شمال المغرب الأقصى مما نفاه ابنه في تحفة الزائر. وصار الأمير فتانا على لسان السلطان المغربي، وجيش له الجيوش لحربه فأوقع بهم، ثم اضطر الأمير إلى الاستسلام للفرنسيين.

3- **الثغور والعلاقات**: وعرف عصر عبد الرحمن حرب تهديد الثغور المغربية، فاضطر السلطان لإعادة إحياء الأسطول المغربي، ووقعت مناوشات مع النمسا وهجوم على العرائش (1245هـ/1829م) أفضت إلى وضع اتفاقية بينهما. وسطت إسبانيا على جزر كبدانة (جزر ملوية) (1265هـ/1848م) ولم يزد المغرب على الاحتجاج. ثم قصفت السفن الفرنسية مدينة سلا بتسعة آلاف قنبلة بسبب نهب سفينتي حبوب لها (1268هـ/1851م).

وظلت بريطانيا الدولة المفضلة في الميدان التجاري، تكتسح بضائعها المغرب. لكن العلاقات بدأت تسوء، وقد أوفدت الحكومتين الفرنسية والبريطانية وفدا يعرض على المغرب إلغاء الرق 1259هـ/1860م)، وكان هذا معدودا تدخلا في الشؤون الداخلية المغربية. ثم ضعفت العلاقات التجارية مع بريطانيا لعدة أسباب، ورأت بريطانيا من مصلحتها وضع معاهدة مع المغاربة تضمن حصتها التجارية بالمنطقة، وأوكلت المهمة إلى ممثلها بطنجة السير درومند هاي، فقام بأساليبه الملتوية من رشوة ووضع علاقات وتهديد للسواحل بسبب القرصنة، فاضطر السلطان المغربي للموافقة على توقيع المعاهدة في ديسمبر سنة 1856م (1273هـ).

كانت المعاهدة مؤلفة من 38 شرطا، نذكر منها: الشرط 08: لا يفصل في الدعاوي بين الرعايا البريطانيين غير القنصل البريطاني. الشرط 09: الدعاوي بين بريطاني ومغربي يحكم فيها العاهل أو القاضي إن كان المشتكي بريطانيا؛ وإن كان مغربيا القنصل البريطاني مع حضور من يمثل القنصل أو السلطة المغربية. الشرط 34: يلتزم المغرب بإلغاء القرصنة، ويساعد الطرف البريطاني على ردع ومعاقبة المشتغلين بها. وفي شروط تجارية أخر فرضت بريطانيا على المغرب حقوقا جمركية ثابتة...

4- **وفاته ونقده**: توفي بمكناس في سبتمبر 1859م (1276هـ)؛ ومهما حاول المؤرخ إبراهيم حركات تزيين حال هذا الملك؛ إلا أن الواقع التاريخي يظهر أن الرجل لم يكن في مستوى الخطب

العظيم الذي حل بالمغرب الإسلامي بالاحتلال الفرنسي للجزائر؛ بل كان في نهايته سببا في تمكينه. وقد كان لهزيمة معركة إيسلي دون شك أثر كبير في نفسيته، والتي كانت سياساته بعدها في عمومها رضوخا للتيار الأوربي الاستعماري الجديد، دون محاولة جادة لمواجهته، وإن زينت قدرته الدبلوماسية من قبل البعض فإن المعاهدة مع البريطانيين تدلل على خلاف ذلك.

- الببليوغرافية:
- عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.
- أبو القاسم الزياني (1833)، الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب.
- ـــــــــــــ ، الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا.
- ـ الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تـ. جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418-1997.
- محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تـ. أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ط. الأولى، 1406-1986م.
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2 من المرينيين إلى السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420-2000.
- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 1988.
- دييكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، تـ. محمد حجي و محمد الأخضر، الدارس، الدار البيضاء،1988.
- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي.